

جدلية الأخلاق وفاعلية الدين الايجابي في فكر محمد الغزالي

Dialectic of morals and the effectiveness of positive religiosity in the thought of Muhammad Al-Ghazali

الدكتورة: امباركة حاجي¹

تاريخ النشر: 2021 / 03 / 30	تاريخ القبول: 2020 / 10 / 11	تاريخ الإرسال: 2020/08/18
-----------------------------	------------------------------	---------------------------

ملخص:

يطرح المقال موضوع الدين المغشوش، وآثاره السلبية في المجتمع المسلم، من خلال ما كتبه الداعية المري الدكتور محمد الغزالي، الذي وقف في كتبه العديدة، على أهم أمراض الدين المغشوش وآثاره السلبية والوخيمة على الأجيال، وعلى صورة المسلم في المجتمعات الغربية، وقد كانت كتبه كما خطبه المسجدية توصيفا دقيقا لأمراض الدين التي كانت وصما اساء للمجتمع المسلم ، مقدما العلاج .
الكلمات المفتاحية: الدين، المغشوش، إسلامي، أخلاق، المجتمع.

Abstract:

The article discusses the subject of adulterated religiosity and its negative effects on the Muslim community, through what was written by the preacher and educator Dr. Muhammad al-Ghazali, who has studied in his many books on the most important diseases of adulterated religiosity and its negative and dire effects on generations, and on the image of Muslims, and his books were as an accurate description of the diseases of religiosity that were a stigma that offended the religious community in terms of what it should.

Keywords : negative, effects, religiosity, Muslims, educator.

المؤلف المرسل: امباركة حاجي mbarka.hadji@gmail.com

¹ قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2، بريد إلكتروني: mbarka.hadji@gmail.com

مقدمة:

الأخلاق لفظة مطلقة الدلالة، فحينما نتحدث عن العلاقة الجدلية بين الدين والأخلاق والتدين، تترأى أمامنا العلاقة الفلسفية النظرية بين هذه الأنساق الثلاث، ففي الفلسفة الغربية يعد امنوال كانط (Emanuel Cant) بفلسفته الأخلاقية مصدرا لهذا المجال، حيث هدم العقل المحض وأعاد الاعتبار للعقل العملي وفسح له المجال لتشريع الأخلاق الإنسانية.

أما في الفكر الإسلامي، فيمكن تلمس هذا النقاش الفلسفي بالرجوع إلى مناظرات المعتزلة وفرق المتكلمين الذين خاضوا في مسألة ضرورة التزام الشرع بالأخلاق وعلى رأسها العدالة، ففي ما يرى الأشاعرة أن حق الله غير محدود في تشريع أحكام قد يحكم عليها العقل القاصر بالقصور، وقد كان لهذا السجال الأثر البالغ على الأحكام والتشريعات الفقهية، ومن ثم أثر كذلك على فهم الدين ومظاهر التدين والالتزام بالأحكام الشرعية في كل مناحي حياة الإنسان.

لقد قضت الإرادة الإلهية أن يكون الإنسان محور هذا الوجود، ومحلا للخطاب الرباني وموضع نفخة الروح من لدنه عز وجل، وموضع سجود ملائكته الأبرار، ليتبوأ مرتبة السيادة في هذا الوجود بفضل تلك النفخة الربانية (الروح)، التي تكون طاقة غيبية تتمظهر من خلال مظاهر التدين والتفاعل مع الخطاب الإلهي للقرآن الكريم، من خلال الارتقاء والاستقامة، فالتدين نزعة فطرية، وحاجة متجذرة في كيان الإنسان، ولا تتحقق فاعلية التدين إلا بهذه الطاقة الروحية الكامنة والمحركة لسلوكات المتدين، ويرتبط التدين عادة بالدين وضوابطه السلوكية والاعتقادية، فالإنسان هو الكائن الأخلاقي الوحيد، والقادر على تحويل الطبيعة إلى ثقافة.

و«الأخلاقية» هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلاً عن أفق الهيمنية [...] والعقلانية التي تستحق أن تُنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي

كما يرى طه عبد الرحمان¹ فهو كائن عاقل يملك من الفكر والإرادة ما يستطيع معه تجاوز مستوى الغريزة والتسامي إلى مستوى السلوك الأخلاقي الحر².

1-مقاربات اصطلاحية بين الدين والدين والأخلاق

الدين هو وضع الهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات³، ويتداخل مفهوم الدين في اللغة بمعان أخرى مختلفة منها الملة والمذهب، يقول الجرجاني: "الدين والملة متحدان بالذات، ومختلفان بالاعتبار، فان الشريعة من حيث أنها تطاع، تسما دينا ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة، ومن حيث أنها يرجع إليها تسمى مذهبا وقيل: الفرق بين الدين والملة والمذهب، أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد⁴، وترتبط كلمة دين بكل ما يقدها الإنسان ويدين له، خاصة ما كان له صلة بالله الخالق. وقد جاء في معجم لالاند انه مرتبط بثلاث مفاهيم أساسية:

(أ) - مؤسسة اجتماعية بوجود ائتلاف من الأفراد، المتحددين:أولا، بأداء بعض العبادات المنتظمة وباعتماد بعض الصيغ. ثانيا، بالاعتقاد في قيمة مطلقة، لا يمكن وضع شيء آخر في كفة ميزانها، وهو اعتقاد تهدف الجماعة إلى حفظه. ثالثا، بتنسيب الفرد إلى قوة روحية ارفع من الإنسان، وهذه ينظر إليها إما كقوة منتشرة وإما كثيرة وإما وحيدة هي الله.

(ب) - نسق فردي لمشاعرواعتقادات وأفعال مألوفة، موضوعها الله...

(ت) - الاحترام الضميري لقاعدة، العادة .. ان هذا المعنى الذي يكون الأكثر قدما، كان في الماضي أكثر تداولاً مما هو عليه اليوم... وهو محفوظ على نحو أفضل في الزرف، دينيا المستعمل كثيرا بهذا المعنى، حتى في اللسان العادي⁵

وقد اعتبر الدين ظاهرة الاجتماعية ارتبطت بمفهوم الإيمان الغيبي بالمطلق الذي ينبغي الخضوع له والإيمان به، وقد تبلورت الرؤية الفلسفية للدين منذ أقدم العصور، حيث دارت في فلك الأساطير وارتبطت بمسألة التقديس إلى أن تقولبت في مجال الميتافيزيقا في الفكر اليوناني، وقد قام الفكر الشرقي القديم على تفلسف أولى في الدين يؤمن بمصدر أول للموجودات، يتخذ في كثير من الأحيان طابعا أسطوريا يخضع له الإنسان، ويعتقد انه مصدر الخير المطلق. يقول الباحث "خزعل الماجدي" في كتابه "علم الأديان تاريخه، مكوناته، مناهجه، إعلامه، حاضره، مستقبله": (نرى أن كلمة (دين)، التي كانت تعني (المدينة)، لان المدينة كانت هي مكان دار القضاء والعدالة. وهكذا، فقد قفزت الكلمة الاكدية (دين) إلى معنى دلالي آخر، سرعان ما أخذ الكثير من المعاني في لغات العالم القديم. فبالإضافة إلى المعنى العربي، الذي لم يأت من إلا كدية مباشرة، بل من الآرامية (دينو)، أي الديان في العربية، وهو القاضي الذي أصبح دالا على الله في الجهاز الاصطلاحي للدين)⁶.

وقد وردت كلمة دين في القرآن الكريم في ست وتسعين موضعا من آياته، في سياقات مختلفة لا تتعدى ثمانية أوجه: بمعنى الجزاء والحساب والثواب والعقاب منها على سبيل المثال قوله تعالى: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" التوبة/33.

والدين والتدين: الدين من الظواهر التي يصعب وضع مدلول محدد لها، وهذا يرجع إلى عديد من الاعتبارات منها: صعوبة شمول تعريف الدين على أرقى وأدنى صورة له لتتنطبق على كل المجتمعات الإنسانية رغم اختلاف ظروفها. كما أن عدم الاتفاق من جانب العلماء على ماهية الدين البدائي، ومدى التفرقة بينه وبين غيره من الأديان، شكل صعوبة بالغة لوضع تعريف محدد للدين⁷

هذا، وقد تنهت الدراسات في تاريخ الأديان إلى ضرورة الفصل بين الدين كمفهوم، والدين كحالة نفسية، عندما ذهبت إلى القول بان الدين، هو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوى الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها، وان التدين هو الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والطاعة والعبادة... وربما قصدت مثل هذه الدراسات، إلى أن التدين سلوك يرتبط بمفهوم الاعتقاد والممارسة يمكن تقديره وقياسه⁸.

أما التدين لغة: (تدين) اقترض فصار مدينا وبكذا دان به، (الديانة) ما يتدين به الإنسان، (الدين) الديانة واسم لجميع ما يعبد به الله والملة والإسلام والاعتقاد...⁹

والتدين بمعناه الاصطلاحي هو التسليم والخضوع لأوامر الله المنزلة في القرآن فهو الاستسلام والطاعة والعبودية واستسلام القلب والجوارح. فالتدين إذن هو جهاد لانجاز الدين، فيه معاناة يكابدها الإنسان عبر واقعه الذاتي والموضوعي، وفي ذلك الجهاد يصوغ من تصرفاته الفردية والاجتماعية والكونية، في مكابذته لواقع النفس والمجتمع والكون أفعالا جزئية غير منحصرة يحقق بها كليات الدين، ويقترّب بها قدما من المثال الكامل، على قدر ما يصيب في اجتهاده¹⁰. فهو بتعبير آخر إقامة الدين بتطبيق أوامره والوقوف عند مناهيه.

فإذا كان الدين .جملة التكاليف... التي أنيطت بعهدة الإنسان، فان التدين هو تمثل تلك التعاليم وإنزالها لتغدو واقعا يترجم في شكل تصورات وسلوكات وأفعال. فالتدين هو الانفعال بالدين تصديقا عقليا وسلوكا عمليا على معنى تحمل الدين واتخاذ شريعته ومنهاجا، أو هو الكسب الإنساني في الاستجابة لتلك التعاليم، وتكييف الحياة بحسبها في التصور والسلوك¹¹.

لقد ظهرت أوجه عديدة لأنماط التدين تبعا لتحولات الدين في الفكر وهي حالة من المتنوعة بين الفهم الغربي الذي يحاول تكريس الدين بطابعة الفردي كونه علاقة بين الإنسان وما يؤمن به كرد فعل على هيمنة الكنيسة الطويلة على الفضاء العمومي، فتم نقل الدين من طابع المؤسساتي إلى طابع الفردي، لكن الوضع في العلم العربي فيه حضور المؤسسة الدينية، وتحالفها مع المؤسسات الاجتماعية والسياسية، فالدين بقي ضمن حضور المؤسسة الرسمية ولعل هذا خلق إما من تأمل في الدين في العلوم الاجتماعية التي تتعامل مع الدين ضمن الفهم المعاصر الغربي كون الدين هم فردي وهو ذو طابع بشري، لهذا تم طرح التدين كونه ممارسة متنوعة بتنوع الأفراد، وهو فهم يراد له الثبات في الفهم الغربية وتوظيفه في الفهم الإسلامي من اجل كسر احتكار المعنى من قبل المؤسسة الدينية أو القراءات الأصولية التي تنافس المؤسسات التراثية وتطرح فهم سياسي أصولي للدين¹².

هذا ولا ينفصل الدين عن الأخلاق في المنظور التقليدي، بل الدين مصدر الأخلاق غير أن طرح التساؤلات عن العلاقة بينهما يفتح النقاش واسعا، حسب الأنثروبولوجيا الكلاسيكية (التطورية) بدأ الدين كحالة طقوسية خالصة قبل أن يتحول إلى نظام شامل يضم اللاهوت والأخلاق. وهي فرضية مناقضة للتصور الكتابي الذي ينظر إلى الدين كمطلق كلي ولد نهائيا ولا يرد عليه التطور، وهو ما ينطبق على الأخلاق بوصفها شقا من الدين¹³.

لقد تعاقبت نظرة الفلاسفة حول الأخلاق والدين واختلفت باختلاف منطلقاتهم ومدارسهم فمثلا، ثمة مسافة واضحة بين دين فيورباخ الطبيعي الاجتماعي، ودين كانط العقلي الإلهي، لكن أخلاق فيورباخ ظلت قريبة من أخلاق كانط من حيث احتفاظها بشيء من خصائص المطلق، فهي على الرغم من صدورهما داخل العالم عن الإنسان، تنبع من طبيعة ثابتة فيه تشبه الفطرة، وهي تنزع إلى الكمال. لذلك يلزم فهم نقد

فيورباخ على أنه موجه إلى الدين التاريخي، أي الدين الطقوسي التشريعي، الذي تكون بفعل المؤسسة، من تراكمات اجتماعية زائدة عن القانون الأخلاقي. لقد نقل فيورباخ المبحث الديني الأخلاقي خطوة واسعة باتجاه الانثروبولوجيا والاجتماع التاريخي، ولكنه لم يقطع كلياً مع الميتافيزيقا¹⁴.

الأخلاق جمع خلق (بضم الخاء وبضم اللام أو سكونها) وهو الدين والطبع والسجية، وهو الخليفة اي الطبيعة¹⁵

وقد يستعمل اسما للهيئة والفعل معا مثل: العفة والعدالة والشجاعة¹⁶

والخلق بفتح الخاء هو ما يتعلق بمادة الإنسان وبصورته الظاهرة، والخلق بضم الخاء هو ما يتعلق بالهيئة النفسية والمعاني الباطنية فيه، فالخلق هو ما يتعرض للصورة الباطنية للإنسان، حيث يذكر أبو حامد الغزالي في كتابه الأحياء تعريفا للخلق بقوله: الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحموده عقلاء وشرعا، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً¹⁷.

وجاء في اصطلاح العارفين والفلاسفة أن علم الأخلاق هو علم الإنسان، " فالأخلاقية هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلا عن أفق الهيمنة... والعقلانية التي تستحق أن تنسب إليه ينبغي أن تكون تابعة لهذا الأصل الأخلاقي¹⁸ .

لقد ارتبطت الأخلاق بالدين، حتى في صورته البدائية فإذا وجدنا بعض المذاهب الفكرية والفلسفية لا تعير اهتماما للضوابط الأخلاقية، لكننا لا نجد دين يخلو من القيم الخلقية المميزة لأتباعه، مما يؤكد جدلية العلاقة بين الأخلاق والدين، بل وتبعية القيم الخلقية للمعتقد الديني فلا دين بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين¹⁹ .

خاصة إذا علمنا إن الدين الإسلامي خاصة لا يفصل بين الشعائر الظاهرة وبين الآثار النفسية الخلقية ووجدان الإنسان وخلجاته الباطنية، فرسالة الإسلام تقوم على ركيزة تحقيق الغاية الخلقية، فالهدف من بعثته صلى الله عليه وسلم هو إتمام فضائل الأخلاق"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، وتتميم الأخلاق الذي جاء في حديثه صلى الله عليه وسلم، يعني التربية والتوجيه وفق مكارم ومحامد السلوك والأخلاق، ثم الارتفاع بها إلى الكمالات الإنسانية التي تتمثل بأخلاق النبي الكريم الذي أثنى عليه رب العزة من فوق سبع سماوات، ورفع قدره وشانه بقوله: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(سورة القلم/4، فالأخلاق في الإسلام، علم وعمل وثواب وعقاب في الدنيا والآخرة ، وهي النواة التي تدور عليها أحكام الشريعة الإسلامية، وقد كانت المسالة الأخلاقية مناهم الميادين التي ألف فيها الأولون والمتأخرون من أرباب الفكر والقلم منهم أبو حامد الغزالي، وابن مسكويه، وابن القيم والسادة الصوفية الذين تدور مقاماتهم في ترقيمهم نحو الله عبر إكسير الحب الإلهي إنما هو محاسن الأخلاق.

ومن بين الأعلام الذين أولوا اهتماما بالغاً للمسالة الأخلاقية في العصر الحديث الشيخ محمد الغزالي، الذي جعلها مسالة محورية تدور حولها كل محاور مؤلفاته، فقد أكد في العديد من محاضراته وكتبه ابن القيم الخلقية تسري في كل تعاليم الدين الإسلامي.

2-الدعائم الأساسية للأخلاق الإسلامية حسب محمد الغزالي .

يعد الدكتور محمد الغزالي الداعية المربي، المفكر الإسلامي المميز علم من أعلام الفكر والعطاء والتجديد في العصر الحديث، تميز إلى جانب جراته في الصبح برأيه بقوة وشجاعة، ضد الجمود والتقليد، ومظاهر التشويه التي طالت صورة المجتمع المسلم من خلال مواقف ومظاهر التدين المغشوش، وكذا التصدي للاستبداد السياسي بالانتقاد

والتوجيه، إضافة إلى تكوين نخب متميزة حملت ملامح خطه المعرفي التربوي والدعوي. فبالإضافة إلى رسالته التصحيحية التربوية والدعوية، عبر النوادي العلمية ووسائل الإعلام والمساجد كرس حياته كلها في الإنتاج المعرفي، فقد ترك العشرات من المؤلفات والكتب في مجالات شتى من الفكر الإسلامي منها: في القرآن وعلومه، والسنة النبوية، وهموم داعية، وكيف نفهم الإسلام، ومشكلات في طريق الحياة الإسلامية والإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والاستبداد السياسي، والإسلام والطاقات المعطلة، ومع الله، وحقيقة القومية العربية، وفي موكب الدعوة، وكفاح دين، وجدد حياتك، وتراثنا الفكري في ميزان الشرع، وتأملات في الدين والحياة، وكيف نتعامل مع القرآن، وفي موكب الدعوة، ومن أهم ما كتب كذلك كتابه "الجانب العاطفي في الإسلام"، وكتابه "خلق المسلم" الذي حلل فيه الجانب الأخلاقي في حياة المسلم. يعد هذا الكتاب من أهم ما كتب هذا المربي الداعية في تصوري لاعتبارات أهمها:

- ✓ ينتهج الشيخ محمد الغزالي في أسلوبه الكتابي والخطابي لغة سلسة ينتقي فيها كلماته البليغة بأسلوب مؤثر أدبي جميل لا يخلو من خبرة ودراية بوسائل التأثير في المتلقي بلغة راقية تلامس شغاف القلب.
- ✓ بدأ الكتاب بأسلوب منهجي حرص فيها الشيخ على ربط القارئ بمسألة جوهرية ومحورية لدى المسلم وهي العقيدة بالرجوع إلى الكتاب والسنة، بالوقوف عند معاني آيات الكتاب الحكيم وشرح أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.
- ✓ ربط المسألة الأخلاقية عند المسلم بمقاصد الشريعة التي لا تتفاضل بل تتكامل، فضعف الأخلاق من ضعف الإيمان.
- ✓ أكد الإمام المربي على أن إصلاح النفس مسألة ضرورية وجوهرية لصالح المجتمع.
- ✓ بدأ كتابه بالحديث عن أهم صفة ينبغي أن يحافظ عليها المؤمن وهي الصدق وأكد أنه لا يجتمع في قلب المؤمن وسلوكه الكذب والإيمان.

- ✓ عرج في حديثه الشيق عن أنواع الأمانات التي لا يستقيم المجتمع إلا بإتيانها فللأمانات أنماط كثيرة في المجتمع.
- ✓ رجع الغزالي إلى تراث التصوف الإسلامي ليتناوله بطريقة أخرى سماها الجانب العاطفي في الإسلام رغبة منه في إخراج التصوف الإسلامي بعيدا عن النظرة الغربية.
- ✓ تعد كتاباته اقرب إلى كتب التنمية البشرية التي تعتمد وسائل التأثير النفسي وما وصلت إليه مدارس علم النفس .
- ✓ يعتمد الشيخ الأسلوب المباشر الذي يربط المتلقي القارئ لكتبه وخاصة "خلق المسلم" بالقضايا الراهنة يقول في هذا الشأن:"قد حرصت على ضبط المفاهيم وتقريبها إلى الأجيال الجديدة، وكان همي الأول كيف أصل بين العمل المطلوب في هذا العصر-لنصرة الإسلام- وبين المعاني الروحية الموفورة لدينا، كي تنطلق هذه الأعمال بطاقة داخلية قوية ينتعش بها الحق ويسبق²⁰ .
- ✓ جعل المسألة الأخلاقية على رأس القيم الإسلامية التي كانت محور هذا الدين مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".
- ✓ أسهب الشيخ في مسألة ضرورة ربط أساسيات العقيدة بأركان الإسلام والإيمان وعلاقتها بقوة أو ضعف المنظومة الخلقية عند المسلم، مع الحث على ركيزة إصلاح النفس سواء في الإطار الفردي أو الجماعي، وقد اختار عشرون خلقا شاملا لشمائل المسلم بدأها بالصدق باعتباره المحور الأساسي الذي ينبغي أن تدور حوله كل قناعات وسلوكات الفرد المسلم، وانتهى إلى ضرورة الحفاظ على الوقت والالتزام بالانضباط واحترام الوقت لان الوقت هو الحياة، ويشير إلى منهجيته التي سار عليها في ثنايا هذا الكتاب القيم يقوله: "هذه نقول من الكتاب والسنة توجه المسلم إلى الفضائل التي يتم بها دينه، وتصلح بها دنياه وأخراه جميعاً. مهدتُ لها وعقبتُ بتفاسير موجزة، تعالج ما انتاب المسلمين في هذه الإغصار من انحراف وهبوط،

نتيجة ما أصاب أخلاقهم من عُقد وعلل.. واكتفيت بما سُقّت من آيات، وذكرت من أحاديث. فلم أَسْتَطِرد إلى إيراد الشواهد الأخرى من أقوال الأئمة، وحكم العلماء، وعظات العُبَاد والمتأدبين على كثرتها في تراثنا القديم، لأنني قصدت أن نرجع إلى الشريعة وحدها، وأن أعرض جانب التربية منها، على أنه توجيه إلهي، يُطالب المسلم بالتزامه، ويعتبر مقصراً في حق الله، حين يَعرض عنه.. وفرق بين المطالبة بأدب ما على أنه خلق عام، وبين التكليف به على أنه دين كسائر العبادات المفروضة في هذا الدين.²¹

3- علل وأدوية التدين المغشوش:

يعد موضوع التدين المغشوش، ومظاهره السلبية من المسائل التي أسالت الكثير من الحبر حولها، سواء من المشتغلين بالخطاب الديني، أو من المشتغلين بالتربية والتعليم عامة، ومن الغيورين على الدين الإسلامي، دون إغفال التيارات اللادينية أو العلمانية المناوئة للدين والتدين، أو القائلة بفصل الدين عن الحياة من دعاة العلمانية بكل أبعادها، وبات موضوع أمراض التدين أو انحرافات التدين، من المواضيع التي استسهل غرباء على المجال الإسلامي السطو عليها، وكما اقتحم "مثقفون" معاصرون مجردون من الأدوات المنهجية الإسلامية (علوم آلة ومنهجاً) حقل العلوم الإسلامية والتراث الإسلامي، سطا نقاد متعلمون على القول الإصلاحية والنقد الاجتماعي الإسلامي في الوقت الذي كانوا يصعدون عن مزاج حضاري مبين، ولم تكن لهم - بالأحرى - صِلة بالمعاناة الدعوية أو بالعقلية الإسلامية الأصيلة.²²

وحين الوقوف عند مصطلح التدين المغشوش تستوقفنا مسألة التأصيل له، لنجد أنها كلمة ارتبطت عبر تعاقب القرون بمسألة الإصلاح والتربية والتوجيه مع كبار الأئمة والمصلحين، من أمثال ابن الجوزي الذي أشار إلى "التدين الفاسد" في كتابه "صيد الخاطر" كما ذكر الزهد الكاذب والمزيف ورياء الزهاد، يقول: "رأيت كثيراً من الناس يتحرزون من رشاس نجاسة ولا يتحاشون من غيبة، ويكثرون من الصدقة ولا يبالون

بمعاملات الربا، ويتجهدون بالليل ويؤخرون الفريضة عن الوقت في أشياء يطول عددها من حفظ فروع وتضييع أصول"، وتطرح المقولة هنا أكثر مظاهر التدين المغشوش وهي الرياء وحب الظهور والأثرة والنفاق والبعد عن مراقبة الله في السر والعلن، حيث تتمظهر على التدين الفاسد في التركيز على المظاهر الخارجية، التي تؤثر في رؤية الآخر أو وباختصار التدين المغشوش سير مظاهر الانضباط بالضوابط الشرعية مظاهر جامدة لا روح فيها، والتدين فطرة في الإنسان تحتاجه البشرية على اختلاف مشاربها الثقافية والحضارية، كما انه عند الناس جميعهم، ولا يختص بشعب دون شعب، أو ديانة دون أخرى، "ومن هنا أعد معهد (جالوب الأمريكي) دراسة عن أكثر المناطق تدينا في العالم! واللطيف في الدراسة أنها وجدت أن العالم العربي من أكثر الشعوب تدينا على وجه الأرض، ولكن في الوقت نفسه، نجد أن شعوب هذه المنطقة تحتل مراكز متقدمة في الفساد والرشوة، والتحرش الجنسي، والغش والنصب والتزوير. وتلك من مظاهر التدين - الإسلامي - المغشوش." الذي كانت له تداعيات على موقف المجتمع من هذه الفئة، وكذا على الكثير من الوافدين على الدين الإسلامي الجدد، الذين وقعوا في نوع من التمزق أو الاغتراب الذي سببته مظاهر التناقض بين ما قرؤوه عن الإسلام من المصادر وما يجده في واقع الحياة المعاشة عند المسلمين، ولعل المقولة الشهيرة التي يقول صاحبها: "الحمد لله الذي عرفت الإسلام قبل ان اعرف المسلمين" اكبر تجسيد لهذا التمزق.

إن المتتبع لمظاهر التدين المغشوش أو الفاسد ليجد أمامه مجموعة كبيرة من التشوهات السلوكية التي لا يتسع المجال لذكرها كلها، أو الاستفاضة فيها، غير ان الإشارة إلى مسألة طبيعة التنشئة الاجتماعية، واثار مظاهر الجهل والفقر والتخلف على نزوع الطبقة المطحونة الى التركيز على مظاهر التدين، إضافة إلى تأثير المعايير الاجتماعية

التي تشكلت لظروف تاريخية ، او لخصائص نفسية واجتماعية صبغت هذا الدين او ذاك.

إن حقيقة التشوهات المذكورة سابقا هي غلبة السلطان الاجتماعي على السلطان الديني، ولذلك ينتهك الناس وصايا أخلاقية جليلة ويدوسون مقاصد شرعية عظيمة، في حين يعظمون جرم بعض الصغائر ويجعلونها في مرتبة الكبائر، وهي أهون عند الله مما انتهكوه وأعظم في ميزان الشرع مما استحلوه، وبذلك ينشأ تدين اجتماعي مشوه²³.

لم تكن المجتمعات الإسلامية بمنى عن التأثير بما يقع في العالم من تغير، خاصة بعد انتشار وسائل التواصل وتطورها، حيث أضى العالم كله قرية صغيرة مما عرض القيم الدينية والاجتماعية للاهتزاز، وفي ظل غياب تجديد عميق للخطاب الديني يعيد لجوهر الدين حضوره وبريقه ظهرت الكثير من التشوهات في مشهد التدين، وبات التباين بين أنماط التدين حيث انصبغت المجتمعات الإسلامية بألوان شتى من أساليب التدين ، وبات التعايش بين قيم المحافظة والتفتح مسعى تيارات سياسية وفكرية في الشرق والغرب، أضفى بعد تعاقب الأجيال الى ألوان من أنماط التدين، فللحواضر تدينهم وللبوادي تدينهم ناهيك عن التباين بين الغرب والشرق الإسلامي، من أنماط التشوه التركيز الكبير على المبالغة في التمايز بمظاهر التدين دون الوقوف عند مقاصد الشرع كاستسهال تبعات العنف وقتل النفس التي حرم الله بترويج ألوان الاعتداء تحت مسميات مختلفة، أو تضبيب الفرائض لحساب النوافل " ففي أغلب مجتمعاتنا تعايش قيم المحافظة على الصلاة والصوم والحج، جنبا إلى جنب مع التطبيع النفسي والاجتماعي مع منكرات الكذب والخديعة والغش وغياب الإتقان وغربة الإحسان.. ثم ينطبع كل مجتمع على حدة بنسخة تدينية بها تراتبية قيمية ليست لدى المجتمع الآخر، فذاك مجتمع يعظم الجانب الاجتماعي الخُلقي ويستهن بمقاصد الأخوة والعدل والأمانة العامة²⁴.

لقد كان موضوع التدين المغشوش من بين المحاور الأساسية التي شغلت اهتمام الداعية المربي الشيخ محمد الغزالي، بل ارقه ما وصلت إليه الأمة من انهيار للقيم وتشوه لمظاهر وسمت التدين الذي قد يكون انكى بالأمم من الإلحاد فقد حلل وناقش وبحث في الأسباب والنتائج بل وفي التداعيات التي تخيم بظلالها علي كل مجالات الحياة في المجتمعات الإسلامية، ويكاد لا يخلو كتاب من كتبه من الإشارة إلى أدواء وأمراض التدين المشوش والتائه بل المغشوش، الذي اغترب عن جوهر الدين الذي بني على توافق الظاهر والباطن، ومراقبة الله في السر والعلن، والوقوف عند حدود الشريعة في النواهي والأوامر، والتمثل بأساسيات الدين الإسلامي، "فالإسلام رسالة توجب على معتنقيها ان يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة، وأقدر على النجاح" محمد الغزالي²⁵. ويمكن ان نשמّل آراء الشيخ في النقاط التالية :

✓ دعا الشيخ إلى جعل الحياة ميدانا لإقامة دين الله، والابتعاد عن الاستقالة من الفعل الحضاري، فاستنكر أن تختزل رسالة الإسلام في إقامة الشعائر، يقول في هذا الشأن: "لقد رأيت الكثير من الشبان الذين يستحبون خدمة دينهم، وأفزعني ان الخلط الموروث يهيمن عليهم، أنهم لا يحسبون ذلك جهادا، إن الجهاد في وهمهم تلاوات وأوراد، وتكرار ما تيسر من ذلك مادام في الوقت متسع²⁶.

✓ دعا إلى التركيز على الأولويات وعدم امتهان السطحية، بل الانشغال بمقارعة العلوم، ومنافسة الأمم التي فرضت وجودها في ميدان التطور الحضاري بحياة التكنولوجيا، كما دعا إلى الابتعاد عن تبديد طاقات الشباب المتدين في معارك جانبية، بل سطحية يقول في هذا "ما تقول في فتیان يريدون إشعال معركة من اجل قضايا جزئية تتعلق باللباس وغيره هي اقرب إلى سنن العادة منها إلى سنن العبادة ، وقد تأتي في نهاية سلم الأولويات. إن دين الله لا يقدر على حمله ولا على

حمايته الفاشلون في مجالات الحضارة الإنسانية الذكية، الثرثارون في عالم الغيب، الخرس في عالم الشهادة²⁷.

✓ دعا إلى التركيز على تهيئة الأجيال علميا بالتمكن من العلوم والتكنولوجيا التي وصل إليها الغرب ووجد "أن العزلة عن الكون وعلومه جريمة في حق الإسلام وأهله، وإن تأيد الحق الذي شرفهم الله به لا يتم بالقصور العلمي وحسبان الدين مراسم جوفاء، وإن العبادة كما تكون مناجاة لله في صلاة خاشعة تكون مدارس لعلمه الجليل في كونه الكبير²⁸.

✓ دعا في كتابه علل وأدوية إلى الاعتدال والوسطية والتوازن في الاهتمام بالمخبر والمظهر، وعدم تحويل الدين إلى حركات بدن، لأن المعنى الأصيل للدين أن يكون حركة قلب وبقظة فكر، يقول: "دين الفطرة أكاد أشعر بأن أشواق الفطرة وآثارها أشيع في ظل الحضارة الحديثة منها ف يظل الدين المختل. إن الإنسان بفطرته التي ولد بها يدرك أن العدل حسن والظلم قبيح، وأن العلم مفخرة والجهل معرة، وأن الطهر سمو والعهر سقوط. ومع تجاوب المرء مع فطرته، ومع تعاونه مع أشباهه يمكن إقامة مجتمع أدنى إلى روح الدين أو أقرب إلى تعاليم الإسلام وعند الموازنة يكون هذا المجتمع أرجح وأنجح من مجتمعات أخرى صماء عن نداء الفطرة²⁹.

يشير الشيخ محمد الغزالي إلى الدين المغشوش في مقدمة كتابه الغزو الثقافي، ويرى أنه يصنع التخلف ويوقع الناس في حرج شديد والمحزن-يقول- أنه في غيبة الفقه الذي، انتشر الدخن المخوف، وامتد أذاه، وأصاب الإسلام الصحيح منه شر مستطير.. وقد نظرت إلى حصائل بعض الناس من علوم الدين فوجدتها لا تتجاوز هذا الدخن. إنهم يلقون أحاديث، ويصدرون فتاوى ويخوضون باسم الإسلام معارك، والإسلام بعيد عما يقولون وعما يفعلون، وإن كان يصلى نارهم ويحمل عارهم.. وهو مظلوم، مظلوم..

الإسلام الصحيح يقدم لأتباعه الخير، ويهب لهم النصر.. وهذا التدين المغشوش يقدم الهزيمة ويصنع التخلف، ويحس الناس معه بالهزيمة.

خاتمة

لقد قضى الشيخ محمد الغزالي حياته منافحا عن الهوية الدينية للمسلم، وقد ارقه مشكل التدين الشكلي أو التدين المغشوش الذي أصبح سمة الشخصية المسلمة عامة اليوم، خاصة لدى الشباب، وقد تمظهر هذا اللون من التدين في التركيز على المظهر وإهمال المخبر، ناهيك عن الجانب السلوكي الذي شوه صورة المسلم وآدابه وسمته، إلى جانب فوضى الأشياء التي تميز غالبية المجتمعات المسلمة، وقد ظهر في فكر الشيخ ما يسمى بفقته النسب بين الأعمال، حيث كرس حياته لمحاربة مظاهر النفاق الأخلاقي الذي عم الأمة، فقد اهتم بفقته مراتب الأعمال أو بفقته الأولويات الذي يرجع للإسلام مكانته في بناء الإنسان، فبناء المصانع يعدل بناء المساجد، وقد دعي إلى تحرير المجتمع من التقاليد الراكدة التي حلت محل الثوابت والضوابط في الدين الإسلامي.

لقد كانت حياة الإمام المربي والشيخ الورع، الداعية الباحث والفقهاء المميز عامرة بالجهاد والعمل الدؤوب بالكلمة والكتاب والمحاضرة فقد كان علامة فارقة في زمن عز فيه من يجمع خصاله المتميزة.

*** **

الهوامش:

- 1 طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط 1، 2000، ص 14
- 2 مصطفى عبده: فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي القاهرة، 1999، ص 23.
- 3 محمد عبد الله الدراز: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص 29
- 4 الجرجاني: التعريفات، مؤسسة الحسين، الدار البيضاء المغرب، ط 1، 2006، ص 99.
- 5 الالند اندري، ج 3، موسوعة لالاند الفلسفية، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات بيروت لبنان، ط 2، 2001، ص 1206.
- 6 خزعل الماجدي: علم الأديان (تاريخه، مكوناته، مناهجه، أعلامه، حاضره، مستقبله)، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، المغرب، 2016، ص 26/25.
- 7 محمد عبد الفتاح المهدي، سيكولوجية الدين والدين، البيطاش سنتر للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط 1، 2001، ص 11.
- 8 المرجع نفسه، ص 13
- 9 المعجم الوسيط، باب الذال، 307/1، دار الدعوة - مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- 10 عبد المجيد النجار، فقه الدين فقها وتزيلا، 1/15، مركز البحوث والمعلومات- قطر
- 11 عبد المجيد النجار: المرجع سابق، ص 28/27.
- 12 <http://www.almothaqaf.com/a/qadaya2019/936511>.
- 13 عبد الجواد يسن " بين الأخلاق والدين" - مفاهيم إشكالية في الوعي الإسلامي المعاصر <https://www.almesbar.net>.
- 14 المرجع السابق
- 15 ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت، ج 10، ص 86.
- 16 امام عبد الفتاح إمام: الأخلاق والسياسة، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط 2001، ص 136
- 17 أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 3، ص 56
- 18 طه، عبد الرحمن. سؤال الأخلاق، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط 1، 2000، ص 14
- 19 المرجع السابق، ص 52-54

20 الجانب العاطفي من الإسلام بحث في الخلق والسلوك والتصوف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2005، ص4.

21 الغزالي محمد: خلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408هـ-1987م، ص3

22 <http://albechir.net/all/?p=165>

23 [/https://www.islamweb.net/ar/article/221695](https://www.islamweb.net/ar/article/221695)

24 المرجع السابق.

25 مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة

السابعة 2005، ص 11

26 المصدر السابق ص12-13

27 المصدر السابق ، ص22

28 المصدر السابق، ص24

29 محمد الغزالي: "علل وأدوية، ص32